وقفة مع رحلات الرّحالة الجزائري محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني .

د/ عبد الرزاق علا

ملخص:

من الرحالة الجزائريين الذين ذاع صيتهم في الأقطار العربية من مشرقها إلى مغربها الرحّالة "محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العسيجي التلمساني" كنيته أبو عبد الله ولقبه شمس الدّين ، عرف بالخطيب الأكبر، ولد بتلمسان سنة 710هـ-1311م و نشأ و ترعرع فيها ، حفظ القرآن الكريم و اغترف العلوم والمعارف على أيادي شيوخ وعلماء أهلها ،ولما بلغ الثامنة عشر من عمره سافر مع والده إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج ، وحين عودته من البقاع المقدسة مرّ بالشام وتونس والجزائر و كانت عودته بطيئة إلى الديار، فقد اتصل بشيوخ هذه البلدان وعلمائها وفي رمضان من سنة -737هـ - وصل ابن مرزوق إلى تلمسان والتقى بالسلطان أبي الحسن المريني . توفي سنة 781هـ-1382م . لديه العديد من المؤلفات نذكر منها:" **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن** " و كتاب " **برح الخفاء في شرح الشفاء**" وكتاب " **عُجالة المُستوفر المُستجاز** " وغيرها من الكتب التي لازلت مخطوطة.

إن لابن مرزوق عدّة رحلات ، فهناك رحلة إلى المغرب الأقصى التي وصف فيها عادات إحياء المولد النبوي الشريف ووصف المساجد والمدارس وبعض الزوايا والمنشآت التي بناها السلطان أبو الحسن المريني ، ورحلة إلى المشرق و خاصة حينما مكث في القاهرة لطلب العلم فقد وصف رحلته البحرية إلى الإسكندرية ،لم يخص ابن مرزوق هذه الرحلات بكتاب مفصّل بل دوّن أخبارها وبعض تفاصيلها ضمن مؤلفاته المختلفة. وهو ما سنحاول ذكره في هذه الورقة البحثية من خلال تتبع بعض نصوصه المذكورة ضمن مؤلفاته المعروضة.

تمهيد :

لقد عرف العرب قبل الإسلام رحلتان ، رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، وقد جاء ذكرهما في القرآن الكريم ، ويرى جل الباحثين أن هاتين الرحلتين كانتا للتجارة ، لأن أهل مكة كان يغلب عليهم الطابع التجاري في حياتهم ، وما إن جاء الإسلام وبدأ ينتشر في سائر الأقطار العربية

والعالمية حتى بدأت حياة العرب تأخذ نمطا جديدا جرّاء الفتوحات الإسلامية ، التي أصبحت تمتد إلى بلاد الهند شرقا وإفريقيا غربا ، فاضطر المسلمون إلى الترحال والتنقل لنشر معلم الدين الإسلامي والدعوة إلى عبادة الواحد الأحد، فانتشر الإسلام وأنشأت مراكز لطلب العلم ، فراح الناس يسافرون في طلب العلم من مكان إلى آخر ، وكان كثير من الرحالة من يدوّن ما يراه ويشاهده في طريق رحلته ، فينقل أخبار الناس ومنشآت البلدان التي يمرّ بها ، كما أن هناك من الأدباء من اغتنم فرصة أدائه لمناسك الحج وسجل كل ما رآه من مناظر وما لقيه من أخبار ، وعن طريق هؤلاء الرحالة وصلتنا أخبار الأمصار ، ولكن اختلفوا في اتجاهاتهم ومسالكهم ؛ فمنهم من اهتم بتدوين أخبار رحلته وطريق تنقله ، ومنهم من ذكر المدن والبلدان التي مرّ بها "ومنهم من كانت عنايته بأقطار العالم الإسلامي **كابن حوقل** في كتابه" **المسالك والممالك" و محمد المقدسي** كتابه " **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم""**[1]، وقد أفرد المقدسي كتابا لرحلة الصحابي " تميم الداري" التي قام بها إلى بحر الشام أسماه " **إفحام المماري بأخبار تميم الداري"** وتكاد تجمع المصادر على أن تميم الداري هو أول رحالة في الإسلام [2].

لتنطلق بعد ذلك قيافل الرحلات بعد فرض الحج على المسلمين ،فكان من الرحالة من كانت عنايتهم بطرق الحج ومسالكه ووصف الأماكن المقدسة وطريقة أداء الحج كما فعل ابن جبير والحسين الورثلاني [3]وابن رُشيد السبتي وغيرهم . وهكذا أصبحت الرحلة عنصرا أساسيا في حياة المجتمع الإسلامي ، فهناك من كانت رحلته إلى تأدية مناسك الحج وهناك من كانت في طلب العلم وهناك من ابتغى التجارة وهناك من كانت رحلته للنزهة والاستكشاف والاستطلاع .

لقد اختلف الرحلات عند الرحالة مما أعطى تنوعا في تسمياتها فهناك :

- **الرّحلة العلمية** : التي كانم يقوم بها طلاب العلم بغرض تحصيل العلوم والمعارف و مجالسة العلماء والفقهاء وقد تكلم ابن خلدون عن الرحلة في طلب العلم فقال : " **الرحلة في طلب العلوم ولقاء**

المشيخة مزيد كامل في التّعلم ... إلا أنّ حصول الملكات المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى روحا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها" [4]

-الرحلة الحجازية: وهي الرحلات التي كان يقوم المسلمون لتأدية مناسك الحج ، وقد دون العديد منهم طريقة أداء الفريضة وأماكن سيرهم وإقامتهم ، فأصبحت كتب رحلاتهم دليلا يقدي به من ينوي السفر إلى القاع المقدسة .نذكر منها الرحلة الحجازية ل لرحلة محمد العبدري .

-الرحلة الاستكشافية: وهي التي التي يكون هدفها استكشاف الأشياء وتوسيع نطاق المعلومات أو الحصول على معلومات من مناطق معينة كالرحلة التي قام بها أبو عبد الله الإدريسي بطلب من ملك صقلية (روجار بن روجار) والتي دونها في كتاب أسماه " **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**" .

-الرحلة الاستطلاعية:يكون هذا النوع من الرحلات بغرض المغامرة وحب التجوال والرغبة في معرفة أحوال الناس وحياتهم ، وتستغرق مثل هذه الرحلات عدّة سنوات كرحالات ابن بطوطة الطنجي ورحالات الحسن بن الوزان الفاسي المعروف بيوحنا ليون الإفريقي، أو بليون الإفريقي[5].

-الرحلة السفارية: ويكون هذا النوع من الرحلات بواسطة تكليف من السلاطين لبعض المقربين للقيام برحلة إلى البلدان الأجنبية للتفاوض أو هدنة أو تسريح أسرى ، وكان من خلالها يعدون تقريرا عن رحلاتهم يذكرون فيه ما حدث لهم وكيف كان لقاؤهم كرحلة " **علي التمقروتي** " التي قام بها إلى اسطنبول ودونها في كتابه المعنونب " **النفحة المسكية في السفارة التركية** ".

الرحلة الخيالية :وتكون هذه الرحلة روحية ينتقل من خلال الكاتب روحا لا جسديا إلا الأماكن المقدسة ، فيصفها وصفا حسيا ، وفي الغالب تسجل شعرا وفي هذا النمط نظم الشيخ بن الفكون الذي زار الحجاز ديوانا كاملا في المديح النبوي. [6]

الرحلة الفهرسية :وهي من الرحلات التي يقوم فيها الكاتب بذكر الرجال الذين لقيهم والشيوخ الذين قرأ عنهم والكتب التي درسها في مسيرته ، ويعد هذا النوع من الرحلات من أهم المصادر في تاريخ

الأدب العربي ، وتكمن أهميتها في معرفة تراجم العلماء والأدباء، وهو ما قام بها الرحالة بن مرزوق في كتابه " **عجالة المستوفز المستجاز في ذكر ما سمع من مشايخ من أجاز من الحجاز"**

" فقد ذكر فيه جميع شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم في جميع أنحاء العالم الإسلامي آنذاك (المدينة المنورة، مكة المكرمة، بيت المقدس ، دمشق ، سوريا، الإسكندرية، طرابلس، تونس، الجريد، بسكرة، بجاية،تلمسان ، وفاس)

وقبل أن نعرض رحلات محمد بن مرزوق الملقب بالخطيب ، ارتأينا أن نعرّف بنسبه وأساتذته و مشايخه وتلامذته ومجمل الأقوال والشهادات التي قيلت فيه من قبل معاصريه .

مولده ونشأته : هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق العجيسي[7] التلمساني " كنيته أبو عبد الله ولقبه شمس الدين عرف بالخطيب الأكبر .

أتت عائلة ابن مرزوق إلى تلمسان قادمة من مدينة القيروان التي كانت بها أملاكها بجبل بظاهر بالقيروان يسمى" بويسلات" ، وخرجوا من القيروان بعد الزحف الهلالي على مدينة القيروان ليستقروا بتلمسان.

ولد محمد بن مرزوق بتلمسان في أوائل ذي القعدة من سنة 711هـ-1311م .تلقى تعليمه الأول على يد والده فحفظ القرآن الكريم و تعلم مبادئ علوم الدين في صغره على يد الفقيه العلامة "**أبي عبد الله محمد بن علي بن قرطال** والإمام **أبي عبد الله القصري** . رافق أباه أحمد بن مرزوق في سفره إلى الشرق لأداء فريضة الحج ، فلم يحرم من الزاد الثقافي الذي تعدّه هذه الأسفار لكل مسلم مجتهد ، فزار أكبر مدن العالم الإسلامي في الشرق (المدينة المنورة، مكة المكرمة، بيت المقدس ، دمشق ، سوريا، الإسكندرية، طرابلس، تونس) وفي سنة 729هـ-1329م ارتجل خطبة بطلب من الشيخ "**الفاضل المرشدي**" خطبة في جامعة الاسكندري وهو صاحب الثمانية عشر سنة، وقد قرر أبوه أن يمكث طول حياته في الحجاز و ألح عليه في الرجوع إلى المغرب ، وهو ما فعله إلا أن عودته كانت بطيئة وذلك في 733هـ حتى 735هـ ليستمع إلى أساتذة البلدان التي يمر بها في طريق العودة،فوصل إلى تلمسان سنة737هـ -1337 وبعد تسعة أيام من وصوله فتح السلطان المريني

تلمسان وقد كان عمه محمد الثالث مقربا من السلطان أبي الحسن المريني ، فبعد وفاة عمه عيّن خطيبا لجامع العباد الذي شيده السلطان على ضريح الولي أبي مدين بتلمسان ، وأصبحت تربطه علاقة وطيدة بالسلطان المريني، وفي سنة 740هـ-1339م رحل إلى فاس مرتين ورحل إلى مدينة سلا صحبة السلطان المريني أبي الحسن ، ثم رحل مع السلطان غلى مراكش ن ثم عاد بصحبته غلى تلمسان ، ولازمه هناك : " وتظهر المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها ابن مرزوق في حاشية الدولة المرينية حينما أرسله السلطان إلى سفارة الأندلس ثم إلى قشتالة لإبرام معاهدة صلح وفداء ابن أبي الحسن أبي عمر تاشفين الذي وقع أسيرا في وقعة ظريف سنة 1339م 741هـ التي انهزم فيها المرينيون شر هزيمة، فرحل إلى ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر واستطاع أن ينجح في مهمته فتبوأ مكانة رفيعة في بلاط السلطان أبي سالم ابن السلطان حسن الذي تولى الحكم سنة 760هـ-1359م"[8].يقول ابن خلدون عن هذه المرحلة من حياة بن مرزوق:" **رفعه السلطان على الناس ،و ألقى عليه محبته ، وجعل زمام الأمور بين يديه فوطئ الناس عقبه،وغشي أشراف الدولة بابه وصرفوا الوجوه إليه"** مما جعل معاصريه ينقمون عليه جرّاء هذا التفضيل والجدير بالذكر أن ابن مرزوق وابن خلدون قد اشتغلا معا في بلاط السلطان أبي سالم ، مما يعنيه من منافسة وتحاسد [9] " .وبعد اغتيال السلطان " **أبي سالم**" ألقي على ابن مرزوق القبض وصودرت أملاكه واغتصبت داره بفاس وأودعه الوزير عمر بن عبد الله بن علي السجن ، وقد ظل يعتبر نفسه مظلوما حتى أطلق سراحه ، فألف كتابه " **جني الجنتين في فضل الليلتين ليلة القدر وليلة المولد النبوي"** وقد ألف ابن مرزوق هذا الكتاب بإيعاز من السلطان الحفصي أبي إسحاق والذي ذكر فيه نكبته وما كان لها من وقع على نفسيته، يقول :" **فإني لما دهتني الفتن وتغير في نظري الوطن ، وفارقت الأقران وعدمت الإخوان ، وتجلى نهار المشيب فبدت لي معايب الاغترار، ، ورأيت في مرآة الزمان صور الأغيار، وحالت علي معهودات الأحوال ، وكمّلت من الهموم الدنيوية أثقالا وأنى أثقال ، وكابدت نكبات وعثرات من الدهر لمثلها أن يقال ، وحصلت العناية الربانية ففك على حين غفلة العقال ن وخلصت حين عدّ الخلاص من المحال "**[10] ولما أفرج عنه ، وتجلت عنه سحب النكبة والامتحان ، جزم بالرحلة إلى خارج الأوطان فغادر المغرب باتجاه الأندلس حيث شارك في

احتفالات المولد النبوي الشريف سنة 763هـ-1362م التي شهدها البلاط الغرناطي ، فوصلها في شهر رمضان من سنة 765هـ-يناير1364م، وهناك استقبله السلطان الحفصي أبو إسحاق إبراهيم بحفاوة وعينه خطيبا بجامع القصر ، ليقرر السفر إلى تونس وهناك يلقي من الحفاوة وحسن الاستقبال ،و مؤكدا على حفاوة الاستقبال والمكانة المرموقة التي أصبح يحتلها قائلا:" **حللت بهذه الحضرة الكريمة الطاهرة الأعراق ، والوسيمة الخلائق والأخلاق ، الوارث لمنصبها العلي بالاستحقاق مولانا أمير المؤمنين المنتصر بالله المؤيد بنصر الله ، أبو إسحاق ...وقد أولى رضي الله عنه من جميل إحسانه ما أولى و أنسى ، فأجرى فضائله وألطافه ما أسلف سلفه الكريم الأولى ، وقلّد الخطط الشريفة والمنن ، وجرى في إحسانه وامتنانه على أفضل سنن ، وندب إلى إطالة المقام وقيّد الإحسان**"[11] كما يذكر في موطن آخر قائلا:" **أقول وأنا ابن مرزوق المسمى فيه : إني وصلت تونس المحروسة في شهر رمضان من سنة خمس وستين ، فلقيت بها من المبرة والكرامة والوجاهة ، فوق ما يعهده أمثالي ، ووليت خطابة جامع ملكها ، وتدريس أم المدارس فيها ، وهي المعروفة بمدرسة الشماعيين ، كل ذلك تحت رعاية وعناية وملازمة المجلس ملكها ، إلى أن توفي سنـــــــــة إحدى وسبعين**" [12] وبعد وفاة السطان وتقلد ابن عمه أبو العباس عزل ابن مرزوق من وظائفه بتونس، ففكر بالعودة إلى المغرب بفاس واسترجاع مكانته في البلاط المريني ، إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح وحينها فشل في العودة إلى فاس ليشد الرحال إلى المشرق بأهله وولده ونزل بالاسكندرية في ربيع الأول 733هـ-أكتوبر1371هـ واستقر بالقاهرة ولقي أهل العلم و أمراء الدولة فأوصلوه لإلى السلطان المملوكي ، الأشرف ناصر الدين شعبان فأكرمه وولاه القضاء إلى أن وافته المنية الخطبة والتدريس في مساجد صلاح الدين ، فلم يزل بها موقرة الرتبة معروف الفضيلة ، إلى أن وافته المنية في ربيع سنة 781هـ-1979م بالقاهرة.

إن حياة ابن مرزوق كانت حافلة بالنشاط السياسي ، فتقلب في الوظائف السامية من خطبة وكتابة وتدريس في مختلف بلاطات الغرب الإسلامي في القرن الثامن هجري ، إذ خدم سلاطين فاس، وملوك تلمسان وملوك غرناطة وملوك تونس وتنعم بالثروة والجاه وعلو المكانة كما عانى في السجن يقول عن نفسه : " **فإني لما ابتليت والحمد لله على كل حال ، بهذا الظهور الدنيوي الذي لم**

يصل إلى نوعه من عاصرني من صنفي من الرجال حتى لقد ارتقيت خمسين منبرا من حواضر الإسلام على ما هو معلوم عند أهل العصر الخاص والعام ثم انتقلت إلى ما لا بد منه بحسب العادة المظهرة في صدق الخبر الصحيح من الاستفال من بعد العلو ، والهبوط بعد الطلوع والبعد بعد الدنو ...فتقبضت النفوس بعد كمال الهشاشة وتبهشرت الوجوه بعد طلاقة البشاشة " يقول عنه أحد أصدقائه وتلامذته وهو لسان الدين ابن الخطيب:"**هذا الرجل من طرف دهره ظرفا وخصوصية ولطافة ،مليح التوسل ، حسن اللقاء، مبذول البشر،كثير التودد، نظيف البزة، لطيف التأني ، خير البيت ، طلق الوجه، خلوب اللسان ، طيب الحديث ، مقدر الألفاظ، عارف بالأبواب، درب على صحبة الملوك والأشراف، متقاض لإيثار السلاطين والأمراء يسحرهم بخلابة لفظه، ويهتدي إلى أغراضهم الكمينة بحذقه، ، ممزوج الدعابة بالوقار ، والفكاهة بالنسك ، عظيم المشاركة لأهل وده والتعصب لإخوانه ...عذب التلاوة متسع الرواية، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير ، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف ، فارس منبر غير جزوع ولا هياب"**[13]

- **شيوخـــــه**: كتب ابن مرزوق كتابا كرّسه لعرض الأساتذة والشيوخ الذين درس عليهم سمّاه " **عجالة المستوفز المستجاز في ذكر ما سمع من مشايخ من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز**" ، كما تذهب بعض المصادر إلى القول بأن شيوخ ابن مرزوق لا يمكن عدهم فالمصادر التاريخية طافحة بأسماء مشايخه الذين يزيد عددهم عن الألفين ولذلك سنذكر البعض منهم فقط .

- **في تلمسان**:أبو زيد عبد الرحمان الصنهاجي- أبو عمر ميمون بن سعيد السرغيني- أبو عبد الله محمد بن علي بن قطرال الأنصاري – أبو عبد الله بن حريث العبدري- عيسى بن الإمام- عبد الرحمن بن الإمام - محمد بن هدية- عبد الله بن الواحد المجاصي- سعيد بن عبد الرحمن بن علي حسن بن يوسف بن يحي بن محمد الحسيني....وغيرهم .

- **في بجاية** :أبو عبد الله بن غيرون –أبو إسحاق الأليسي- أبو زكريا الصفوني-أبو عبد الله المسفر-أبو محمد بن عبد الواحد الكاتب –أبو عزيز بن فرقان-أبو موسى بن رقان –أبو علي بن حسين-أبو العباس ابن عمران .

- **في تونس**: ابو الحسن الخطاب –أبو عبد الله بن الغماد- أبو علي بن القداح – محمد بن راشد القفسي-عمر بن عبد العزير بن عبد الرفيع .

- **وبالإسكندرية**: سيدي داود –سيدي أبو عبد الله الفاسي – سيدي أبو الحسن العربي- سيدي أبو زكريا الزواوي.[14]

- **في القاهرة**: تقي الدين بن محمد الأخنائي- أبو الحسن الواني-بدر الدين بن جماعة.

- **في المدينة**: عز الدين أبو محمد الحسن بن علي بن اسماعيل الواسطي – جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف الخزرجي المطري-بهاء الدين موسى بن سلامة المدلجي الشافعي البصري- محي الدين أبو زكريا يحي بن محمد المغراوي التونسي-شهاب الدين بن أحمد بن عبد اله المعيشي وغيرهم

- **في مكة**: شرف الدين أبو عبد الله احجي المكي- نجم الدين محمد بن عبد الله بن المحب الطبري- أبو زيد عبد الحمن بن الإمام – حيدر بن عبد الله المقري- أبو الصفاء القسطالي – عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي- خليل بن عبد الله .

- **في بيت المقدس**: علاء الدين علي الأيوبي- نور الدين محمد بن الصائغ- محمد بن علي الأندلسي.

- **في دمشق**: شمس الدين بن سلم –برهان الدين بن الفركاح.

- **في طرابلس**: أبو محمد جابر بن عبد الغفار.[15]

تلاميذ بن مرزوق: لقد تتلمذ على يده عدد كبير من العلماء الكبار أمثل لسان الدين بن الخطيب ، ومحمد بن يوسف بن زمرك الذي كان يحضر دروسه بغرناطة ، وابن قنفد القسنطيني ، وأبو القاسم البرزلي، وعبد الله بن محمد الشريف التلمساني ،و محمد بن أحمد بن علوان المصري التونسي، والحافظ أبو عبد الله محمد بن علاق الغرناطي وغيرهم .

من مؤلفاته:

1-المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن .

2- **المناقب المرزوقية .**

3-تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام.مخطوط الخزانة العامة بالرباط

4-الأحاديث الأربعون النبوية من روايات الخلافة العلوية مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

5-جني الجنتين في فضل الليلتين ليلة القدر وليلة المولد النبوي.

6-برح الخفاء في شرح الشفاء.

7- عجالة المستوفز المستجاز في ذكر ما سمع من مشايخ من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز.

8-خطب كثيرة من غير التزام حروف المعجم .مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

9- بوح الخفاء في شرح الشفاء .[16]

***بعض نصوص رحلات ابن مرزوق:** لقد دوّن ابن مرزوق العديد من رحلاته في نصوص خلّت حياته ومالقيه في رحلاته من مواقف نذكر البعض منها :

1*نص رحلته إلى مصر لرفقة والده:

لقد خلّد ابن مرزوق بعض سفرياته وما وقع له في كتابه الموسوم" **المناقب المرزوقية** " فقد تطرق إلى رحلته التي قادته إلى مصر رفقة والده وهو لازال صاحب التسعة عشر سنة لزيارة الشيخ **سيدي عبد الله المرشدي** يقول:" **حملني أبي معه ، وأنا ابن التسعة عشر سنة أو نحوها ، قال : فوصلنا الشيخ ، فنزلنا عنده كالعادة ، فوافقنا صلاة الجمعة عنده ، ومن عاداته أن لا يتخذ للمسجد إماما راتبا بل يقوم في مسجده للصلاة من يريد الله به خيرا ، فيختاره للصلاة،، وحضر يومئذ من أعلام الفقهاء من شتى البلاد من لا يجتمع مثلهم في غير هذا المشهد .فقرب وقت الصلاة ن فتشوف من حضر من الخطباء الفقهاء إلى الصلاة ، وصاروا يتطاولون بالأعناق ، ويفرون إلى الموضع الذي يخرج منه الشيخ، حتى زاحم وقت الصلاة ن ولم يبق إلا خروج الإمام ، فإذا بالشيخ قد خرج ، فنظر يمينا وشمالا ، وأنا خلف والدي ، في الصف الثاني ن فوقع بصره عليّ، فقال : يا محمّد ، تعالَ، فقمت إليه فدخلت معه إلى موضعه ، فقال لي: يا محمد ، أي شيء قرأت؟ فعرّفته بأني قرأت معظم كتاب التنبيه للشيرازي على مذهب الشافعي، فباحثني في الفروض والشروط والسنن، ثم قال : يا محمد توضأت لصلاتك هذه ؟ قلت نعم .فقال لي : كرر الوضوء بين يدي، فدعا خادمه ، فجاء بإناء ، فقال : كرّر الوضوء وانو به مانويت به بوضوئك الأول ، فتوضأت وأخلصت النية ، فأعجبه وضوئي ثم أخد بيدي، ودخل معي المسجد ، وقادني غلى المنبر ، وقال لي : يا محمد ، ارقَ ، فقلت له : يا سيدي والله ما أعرف ما أقول ، فقال لي : ارقَ ، وناولني السيف الذي يتوكأ عليه الخطيب عندهم ، فارتقيت المنبر ، وأنا حائر مفكر فيما أقول ، إذا تم المؤذنون الأذان ، فلما فرغوا ، قمت وأنطق لساني بما لا يدري ما هو إلا أني كنت أنظر إلى الناس وهم ينظرون إلي ، وهم يتخشعون ويبكون من موعظتي، ن فأكملت الخطبة الأولى وجلست ، ثم قمت إلى الثانية كذلك حتى أكملتها ، فلما نزلت ، وقف وقال لي، أحسنت يا محمد ، جزاؤنا عندنا أن نوليك الخطبة ، وأن لا يخطب أحد غيرك، فازدحم الناس عليّ، بين مقبل رجلي، ومقبل يدي ورأسي، وجاء إلي أبي وقبلني بين عيني، وقال: يابني: ومتى وفقك الله لحفظ الخطبة التي لم أسمع بمثلها ، فقلت : والله يا أبتي ماحفظت قط خطبة ، ولا أدري ماذا كنت أقول ، إلا أني أرى الناس يبكون "**[17]**

2*نص رحلته إلى الاسكندرية رفقة أصحابه:

وبعد أن مكث ابن مرزوق مدة بالقاهرة ، أمضاها في طلب العلم خرج مسافرا إلى الإسكندرية عن طريق البحر رفقة جماعة من الأصحاب ، وقد كان والده قد أوصاه بزيارة أحد الشيوخ هناك ، يقول عن هذه الرحلة : " **فتوجه معي جماعة من أصحابنا الفقهاء إلى شاطئ النيل ، فوجدت مركبا جيدا مسافرا إلى فوا ن فاكتريناه ، وجعلت فيه ظلل من حصور وكتان ، فلما عزمت على الطلوع بعد صلاة المغرب ، وأردت توديا قمنا ع أصحابنا ، حلف جميعهم أن لا يودعونني إلا من الإسكندرية ، جزاهم الله خيرا. فركبنا في المركب ، و أقمنا ننتظر خلاص المركب ، والريح المساعدة إلى أن ذهبت طائفة من الليل ، فنام أصحابي وذهب عني النوم ، فنظرت إلى رجل قريب مني بزي الفقهاء ، فسألني عن الحال والوطن والوجهة ، فعجبت من عدم معرفتي به ، ومعرفته بي ، إذا كان طلوعنا في وقت لا يغيب عنه ، ولا عني من كان معنا في المركب ، فتمادي على سؤاله ومحادثته ومباحثته ، إلى أن عرفته أني قصدت بالوجهة زيارة الشيخ المرشدي ، رضي الله عنه ، فأنكر علي إنكار ذي غلطة ، ثم أخذ في الاستدلال على منع شد الرحال إلا لما ورد فيه النص ، ثم أخد في تقرير أحوال الشيخ ، رضي الله عنه ، واختلاف الناس في أحواله، ومخالفة ظواهر الشرع لأمور ، وجلب من الأدلة والمقالات للأئمة ماعجزت عن معارضته ، ووقفت عن مناظرته ، وعدت على نفسي باللوم مرة استصوابا لمذهبه ، ومرة في دفع تشكيكه ، إلى أن غلب النوع علي ،فصاح الخدمة من البحرية بالناس إشعارا لهم بالحركة ،فأقلعنا واستيقظ أصحابنا ، فعند مفارقنا المرسة تكسرت القريّة ودار المركب وكاد يغرق، فمضينا على حالنا ...وأنا قد استغرقتني الفكرة فنمت ، من حذري من هذا العارض الخاطر ...فارتفعت للحين أصوات النواتية وهم يقولون : ويلكم الشيمة ، وهي عبارة عن موضع يدور فيه الماء ، فتعطب فيه المراكب غالبا ، وهي مواضع معروفة في نهر النيل ،فداروا بالمركب من أجل ذلك ، فصادف مركبا كبيرا قد حذر لما حذرمنه ، فاصطدما، فسلم جميع من في مركبنا، غيري، فقد حصلت تحت جنب المركب الآخر وكانت السكة التي يرسى بها معاقة منه ، فصادفت شق فرجية كانت علي، وذهب المركب الذي كنت فيه ، وبقيت معلقا في الآخر ، فثقلت وسقطت في البحر ، وأنا لا أحسن العوم بوجه، فأشعرت نفسي للحين في التوبة من ذلك الخاطر ، واستحضرت كلمة الإخلاص ، فعندما تخبطت في الماء، صادفت خشبا في إطلاق المراكب ن وعوائدهم يجلبون الخشب ، فسمع النواتية[18] الحسّ فقالوا: غريق ، ونادى بعضهم بعضا ، ونزل**

بعضهم إلي ورفعني إلى المركب ، وذلك مع طلوع الفجر ، ....ولما فقدوني أصحابي أرسو وجاءوا على الساحل يبحثون عني ،وأرسوا أيضا أصحاب المركب الذي أنا فيه عندما عرفوني ، فوصل إلي أصحابي في البر ، فركبت دابة معهم ، وعدت إلى المركب وأخبرتهم بشأني وما جرى لي ، واستغفرت ، فلما وصلنا المركب طلبت صاحبي المسلط علي فما وجدته ، فسألت أصحابي ، فحلف كل واحد منهم أنه ما رأى بجانبي أحد ، وسألنا جميع أهل المركب فكل يحلف أنه ما رأى ولا سمع ، ثم أقسم جميع أهل المركب ، فكل يحلف لم ينزل منه إلا أصاحبنا الذين تلقوني ، وسئل النقيب الذي كتب الأسماء ،و أحضر جريدة ، فلم يوجد فيها إلا الإسم ولا رآه أحد من خلق الله غيري، فعلمت أ،هـ شيطان ، "[19]

إن هذه الأحداث التي يرويها لنا ابن مرزوق في كتابه " المناقب المرزوقية" تنم عن الصعاب والمخاطر التي يتلقاها الرحالون في أسفارهم إلا أنهم لا يولون لها أهمية بل يواصلون مسيرتهم سعيا للوصول إلى المراد وتحقيق الأهداف، فيواصل " ابن مرزوق" رحلته التي خرج لأجلها وهي زيارة الشيخ يقول :" **فلما وصلنا إلى فوا، وتجاوزناها قليلا ، إلى أن حاذينا مقام الشيخ ، نزلنا فقال بعض أصحابنا : نكتري دواب نصل عليها إلى مقام الشيخ ، فإن بيننا وبينه أميالا ، فقلت لهم : أما أنا فلا أمشي إلا على قدمي حافيا حاسرا، فوافقني الأصحاب، ثم قال بعضهم : نصلي الظهر ، وكان وقت الظهر ، فقلت لهم : الرأي عندي أن نؤخر الصلاة إلى مقام الشيخ ، لعلنا ندرك عنده الجماعة ، فوافقني أصحابنا ، ...فلما وصلنا إلى مقام الشيخ ، وقربنا موضع العمارة ، رأيت بالأرض قذرا ، فلبست نعلي ، ودخلت إلى بستان يخرج منه إلى زاوية الشيخ ومقامه ، فإذا بأحد أصحابي ممن كانت له معرفة بالشيخ يقول: سيدي الشيخ ، سيدي الشيخ ، فقلت له : أين هو ؟ فقال : هذا هو ، فالتفت عن يميني فرأيت شيخا ، ذكرت الله عند رؤيته ، فلما قبلت يديه قال لي أصبت يا محمد ، وأخطأ أصحابك ، تحوطت الطهارة أعضاءك فقدمت الواجب .ثم قال أين المؤذن ؟ فجاء المؤذن ن فقال له ؟ أقم الصلاة الآن ."[20]**

3*نص رحلته إلى المغرب :

كما يذكر لنا ابن مرزوق " في كتابه" **المسند الصحيح الحسن"** بعض عادات و تقاليد سكان الدولة المرينية في طريقة إحياء ليلة المولد النبوي الشريف ، يقول": **فحضرت ليلة المولد ن فلم يصل اهل البلاد قاطبة على ما جرت عليه العادة ، ، فإنه كان يصل الشرفاء والفقهاء والعلماء من أهل البلاد لشهودها ،ووصل من أهل فاس خطيبها كان أبو الفضل المزدغي خاصة ، فلما حضر وكان وصوله ليلة المولد ، ومن العادة أن يستعد لها بأنواع الطعام والحلاوات و أنواع الطيب والبخور وإظهار الزينة والتأنق في إبداء المجالس، فإذا صلينا المغرب ، ركع السلطان ركعتان ثم قصد مجلسه الحافل ، فيستدعي حينئذ الناس على ترتيبهم ، ويأمر بأخدهم المجالس بين يديه على أطراف ثيابه والمطروح بين يديه ، فإذا قضي شأن الطعام أحضر من الفواكه الحاضرة في الوقت ، ثم يؤتى باليابس بعدها ، ثم يؤتى بالكعك والحلاوات ، ثم يؤتى بملاح السكر، وربما اختلفت العوائد في التوالي مرة وفي الفترة أخرى ، وذلك على أعجب ما يتحدث به كثرة وحسنا .وتارة يقع الإطعام بعد العشاء ، فإذا استوت المجالس وانقضى اللغظ، ولا تكاد تسمع صوتا إلا همسا، قام قارئ العشر فقرأ،م تقدم زعيم المسمعين بصفه فيقضي بعض نوبته، ويشرع في قصائد المدح والتهاني، فتقرأ على نظام محفوظ وترتيب محوط على قدر المنازل والرتب والمناصب ، فتطير القلوب فرحا وتسرد المعجزات ، وتكثر الصلوات على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي من أعاجيب ما يرى في بلاد المغرب وبركاتها على هذا القبيل ظاهرة ، والخيرات لا تزال بسبب الاعتناء بها عليهم متظافرة متكاثرة ، وجميع مايفضل من بخور وشماع على كثرتها ، ووفور عدتها يقتسمه الفقراء المسافرون على قدر استحقاقهم ،و يجمع من ذلك العدد الكثير ،.وإذا قضيت صلاة الصبح ، جلس الناس للطعام ، فيؤتى بأنواع الطعام المختص بذلك ، ثم في ليلة السابع ، جلس الكتاب للعطاء للشرفاء والكبار من الفقهاء والأئمة والخطباء والقضاة الواردين ، فيعطى كل على قدر كسوة تخصه ، واحسانا لبعضهم ، ولم تزل هذه والحمد لله مستمرة ، فقد أجراها المولى المرحوم أبو عنان ، وزاد من محاسن ، كما أحياها مولانا أبو سالم وكساها جمالا وزادها أبهة وجلالا مولانا أبو فارس رضي الله عنه "** [21]

خاتمة:

إن مسيرة ابن مرزوق الحياتية والسياسية طبعتها تقلبات عدّة أملتها الظروف السياسية والحياة الاجتماعية السائدة في القرن الثامن هجري فقد انغمس في السياسية وحياة البلاط ومصاحبة الملوك والأمراء ، لذلك لقي من السجن والنكبات بعدما اكتسب الشهرة والمجد ، كما نبغ في الميدان الثقافي والعلمي ووصف بنابغة عصره، فقلد وصفه الباحثون المعاصرين بكونه حاد الطبع وعصبي المزاج، أما معاصروه فلقد وصفه تلميذه وصديقه لسان الدين ابن الخطيب بأنه المتخصص في الكثير من العلوم ، وبغزارة علمه ، وكثرة تعليمه مع الأناقة والبراعة في الخط والطلاقة في الانبساط والفكاهة يقول :" **هذا الرجل من طرف دهره ظرفا وخصوصية و لطافة ،، مليح التوسل، حسن اللقاء، مبذول البشر، كثير التودد، نظيف البزة، لطيف التأني ،خير البيت، طلق الوجه، خلوب اللسان ، طيب الحديث ، مقدار الألفاظ، عارف بالأبواب، دربٌ على صحبة الملوك والأشراف، متقاض لإيثار الملوك والأمراء، يسحرهم بخلابة لفظه، ...ممزوج الدعابة بالوقار والفكاهة بالنسك والحشمة بالبسط، عظيم المشاركة لأهل ودّه والتعصب لإخوانه، إلف مألوف، ...غاص المنزل بالطلبة منقاد الدعوة ، بارع الخط أنيقه ، عذب التلاوة، متسع الرواية، مشارك في فنون ،من أصول وفروع وتفسير ،يكتب ويشعر ،ويقيد ويؤلف ،فارس منبر غير جزوع ولاهياب**"[22]

الهوامش

[1] – شوقي ضيف ، الرحلات ، دار المعارف ، مصر، ط3- دت ،ص125.

[2] –ينظر: أحمد أمين ، فجر الاسلام ، مصر ، دط- 1928، ص،190.

[3] ينظر :–رحلة الورثيلاني، نزهة الأنظار في فصل علم التاريخ والأخبار ، ت: محمد بن أبي شنب ، مطبعة بيار الجزائر، دط-1908، ص141

[4] –كتاب المقدمة ، لابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني بيروت ، دط- 1983،ص1044.

[5] –ينظر: تارخ الرحلة والاستكشاف ، اسماعيل العربي، دط–دت،ص169

[6] –ينظر: أدب الرحالة الجزائريين ، عبد الصمد عزوزي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير ، تحت إشراف ،د/ محمد طول، جامعة تلمسان ،2003-2004، ص15

[7] –عجيسة : قبيلة بربرية من قبائل زناتة استقرت أواخر القرن الثامن هجري جنوب بجاية في ضواحي قلعة بني حماد ،جاؤوا إلى تلمسان هروبا من بني هلال حينما زحفوا على القيروان.

[8] – المناقب المرزوقية ، لأبي عبد الله بن مرزوق التلمساني.67

[9] -المرجع نفسه ،ص68.

[10] -المرجع نفسه ،ص 71.

[11] – ابن مرزوق ، جني الجنتين في قضل الليلتين ، نقلاعن، المناقب المرزوقية ، لأبي عبد الله بن مرزوق التلمساني ،ص73.

[12] -نفح الطيبن من غصن الأندلس الرطيب ، المقري أحمد بن التلمساني تحقيق :إحسان عباس نبيروت ، 1988 ، الجزء5، 408.

[13] -المسند الصحيح الحسن ، لابن مرزوق ،ص 32

[14]-المناقب المرزوقية لأبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني –دراسة وتحقيق –الأستاذة سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية –المملكة المغربية ،ط1-2008،ص77-78.

[15] – ينظر: محمد ابن مرزوق التلمساني ، " المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق : ماريا خيسوس بيغرا ، الجزائر ، دط-1981ص33-34.

[16] -ينظر: المناقب المرزوقية ، لأبي عبد الله محمد بن مرزوق، ص 84-85-

[17]- المرجع السابق ص -285-

[18] – النواتية :عمال المركب أو البحارة.

[19] -المناقب المرزوقية لأبي عبد الله محمد بن مرزوق، تحقيق: سلوى الزاهري، ص266

[20] -المرجع السابق ، ص267.

[21] -المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق، ص153-

[22] -الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب،، القاهرة ،ط2-1973، ص104